أنا وبيسان

أمنة العثمان

obeikan.com

obeikan.com

هنا على هذه البقعة الطاهرة من الأرض، شاء القدر أن تتحول القوة إلى ضعف والسعادة إلى شقاء.

في هذه اللحظة تموت أجيال وتولد أجيال، وتتصارع الحياة القاسية، وتسعى لتكون منارة للأجيال القادمة هنا بين صرخات الثكالى وعلى نيران المدافع والطائرات كانت أم فلسطينية تتألم وتصرخ بتمزقات مخاضها، كصرخات الرصاص في أضلع العُزل المسالمين.

تصرخ صرخات الفرح بقدوم مولودها أثناء خروجه من رحمها حيث علت صرختها؛ لتعلن ولادة الشمس المشرقة الوجنة، ولادة ابنة فلسطين اسمها بيسان.

ـ أنا أحمد ذاك الطفل، ذو الخمسة أعوام، الجالس متكئًا على عتبة الدار في بيت مقابل لبيت هذه الأم القوية، الذي يبعد قليلا عن بيتي، في الوقت نفسه تلاشى بيتنا من أمامي، ومات والدي في القصف الهمجي لبيتنا الصغير الجميل؛ عشت بعدها مع عمتي العجوز لثلاث سنوات، إلى أن ماتت هي أيضًا إثر مرضها وفقرها المدقع لم يتبق لي أحد سوى جارنا أبو بيسان العم صالح، الذي كفلني ورعاني كولد من أولاده. هناك وجدت في عائلته ما فقدته بالحرب، من الإحساس بروعة

ebelkan.com

نطق كلمة ماما وبابا، وجمال الشعور بأن هناك أحد يهتم بك، فواساني هذا الشعور لأستمر في هذه الدنيا.

كبرت بيسان على يدي رعيتها واعتنيت بها، وأحببت شقاوتها عندما تبكي وتضحك وتداعب شعري ووجهي، كانت بالنسبة لي طفلة مدللة على قلبي، كانت ابنتي قبل أن تكون اختي، وقبل أن ينبت الحب في قلبي تجاهها....

استمرت الأيام تمضي بملحها وسكرها، تارة أحزان وموت وافتراق، وتارة أفراح وعزائم أعراس، واحتفال بمولود وناجح، وعائد من الغربة، وأحيانا أخرى تتضارب المعيشة وتصبح ضنكة؛ بسبب دناءة الاحتلال وسرقتهم أرض فلسطين رغمًا عنا، بالاغتصاب والقتل والسجن، فقد كانت حياتنا تنهار بانهيار المنازل بين أنياب دبابات الكيان الصهيوني الغاشم، فهم لم يكتفوا بما دمروه وأحرقوه بل طمعوا بالبيوت البسيطة لأصحابها الفقراء، ووصل زحف احتلالهم ليصل بلدتنا الصغيرة، ويحين دور بيت أبي بيسان، حتي يقيموا مستوطناتهم الخاوية من الأفراد، لكن وجودها ما هو إلا احتلال واغتصاب لنا.

obeikan.com

وقف العم صالح بوجه المدفع معلنًا رفضه الانصياع والخروج من بيته.

"قال الصهيوني: فلتخرج أنت وعائلتك حالاً مهددًا له بقتله بإشارة من سلاحه المشهور بوجه العم صالح.

وبكل قوة وشجاعة يبعد أبو بيسان السلاح بيديه ويقول: بئست، لست بخارج من بيتي إلا على جثتي، ما عاش كلب مثلك لينجس حرمة داري الطاهرة.

فما كان من الصهيوني الغاشم إلا أن ضربه بظهر سلاحه على رأسه؛ فأسقطه أرضًا ثم أشار إلى جنوده: أي اهجموا.

تعثر أبو بيسان وقام يدافع بيده هذه المرة.

حتى إن بيسان ابنة العشر سنوات لم تسلَمْ منهم.

أمسكت حجرًا كان ملاذي الأخير؛ فرميته بوجهه فأدماه؛ فهاج كالوحش المفترس عليّ يريد ضربي؛ فيندفع العم صالح المحاط

بالبنادق ويخطف بسرعة البرق مسدس الصهيوني، ويضرب ويطلق علي الجندي الرصاص؛ فيصيبه لكن لم يقتله فاعتقلوه"

جروه للسجن ودمه ينزف، وأخذوني معه، وبقينا هناك بالجوع والمرض أسبوعين. عانى فيها أبو بيسان المرض من جراء سجنه وتعذيبه، وفظاعة السجن وشكوى السجناء لحال كلٍ منهم، والخوف على بيسان وأمها لم يغادر ناظره.

اشتد المرض إلى أن أنهكه، وانقضّ على أنفاسه فمات شهيدًا عظيمًا، سقى بدمه تراب الوطن.

قبل استشهاده أوصاني ببيسان أمانة في عنقي.

في قرارة نفسي عزمت عندما أكبر أن أتطوع في جيش المقاومة الفلسطينية، أن أحارب من أفقدني كل عزيز علي قلبي، أن أهب حياتي فداءً لأبي وأمي وأهل بيسان.

obeikan.com

رحمه الله العم صالح ذاك البطل الفلسطيني، الذي لا يأبى الذل والهوان، فقذارة حذاءه تساوي كل الكيان الصهيوني واتباعهم الإرهابيين، بما يدعونه تحت شعارات الإنسانية وحقوق الإنسان، بؤسًا لهم ولمن شد على أيديهم المجرمة.

شاء القدر أن أخرج بعد عذاب مرير؛ لأجد بيسان مريضة من شدة الجوع والبرد، وأمها قد أصابها الشلل لآلمها وحزنها الشديدين على استشهاد زوجها، واغتصاب بيتها.

عشنا في مخيم أُعد للاجئين الفلسطينيين من أغلب القرى النازحة رغمًا عنها، وعشنا بخيمة لا تدرأ حر الصيف، ولا ترد برد الشتاء القارص، تعهدت نفسي على سهر الليل كله على راحة بيسان وأمها، التي لم تتحمل ما جرى؛ وماتت بعد سنوات من التشرد والجوع والرعب، ولم يعد لبيسان أحد سواي.

obeikan.com

عندها بدأت بيسان تتغير، وقل مرحها ولعبها، ولمع بعينها حقد وكره دفينين، وباتت تنظر للحياة نظرةً جديدةً، لم أكن أظن أنها نظرة حقد ورغبة للانتقام في بادئ الأمر فهي بنظري ماتزال طفلة، رغم بلوغها الخامسة عشرة، والأطفال ينسون مع الأيام ولكنها، أمست تتوعد وتهدد وتشتكي لي الاحتلال، وتهيم في عوالمها الخيالية سارحةً دائما.

ومرت الأيام بسرعة الساعات، وبطيء الأوجاع والآلام وصعوبة الحياة

حصلت بيسان على الشهادة الثانوية، وانتسبت لكلية الآداب قسم التعليم التربوي، وأصبحت في العشرين من عمرها، فتاة جميلة كزنبقة نبتت في أول الربيع.

من قبلها بأعوام تخرجت أنا من كلية الإعلام، وأصبحت صحفيًا وعملت في جريدة الوطن محررًا صحفيًا.

opneilan.com

في كل يوم كنت أحبها أكثر مما مضى، وأعشق عفويتها بالكلام وطلاقة التعبير لديها، وطيبة قلبها وعشقها للورود والطبيعة؛ كانت تختلف عن الفتيات في جيلها تميل، للقوة والجرأة وحب الانتقام لوالدها.

وبعيدًا عن وجودها معي، ولمعرفتي بعدد من المدرسين المناضلين انتسبت لمنظمة سرية للمقاومة الفلسطينية، وكان عملي كصحفي يساعدني لأتحرك بحرية بين الفصائل، وأجمع من المعارضين للصهاينة من جنسيات أجنبية ويهودية بعض المعلومات الهامة.

لم يقف الاحتلال عند أية حدود، بل تخطاه لكل شبر من أرضنا، وكأنهم يقولون لنا بأننا ضعفاء خائفون لا نملك حولًا أو قوةً، واستمروا بالزحف وزهق الدماء بمجازرهم الدموية اللاإنسانية، التي تدل على الهمجية والعدوان والنازية.

استمر عملي في المقاومة سرًا لكن اليوم اكتشفت بالصدفة باجتماع مع رؤسائي حدثًا أفزعني: بيسان ابنة قلبي طلبت الانضمام إلى المقاومة.

وقتها أحسست بسكين ينغرس بقلبي، ويخلعه من حنايا صدري، فكيف لوردة حمراء أن تنبت في تربة مالحة مدمة بدموع الأطفال والكبار وجراحهم، دون أن تعيد تضرج اللون الأخضر من جديد إلى أرضنا، عوضًا عن تدمي اللون الأحمر

ذهبت إلى بيسان استفهم منها عما يدور بخلدها.

. بيسان هل هناك أمر تودين إخباري به؟!!

. لا أيها الصحفي لا جديد.

. بيسان انظري بعيني أنت تكذبين.

"تغمض عيناها بكفيها " وتقول: نعم مثلما كذبت علي، وأخفيت عني سرك أحمد.

.لم اكذب عليك في شيء، وماذا أخفيت عنكِ، هيا تكلمي "بعصبية"

ـ ضحكة خجل ونظرة حزن يغلفها الحب من بيسان تجاه أحمد، وتلمس يدها لكتفه لتهمس بأذنه:

أنا أعلم إنك عضو في المقاومة، وأنا أعلم كثيرًا عن المقاومة، وكنت أساعدهم من قبل، أثناء الجامعة لكن كانت مساعدات بسيطة، دون الحصول على شيء ضخم

وها أنا هنا الآن حصلت على كل شيء.

يمسك بذراعيها ويقول: بيسان كل شيء ماذا بعقلك هل جننت؟!

ـ لا أنا بكامل قواي العقلية، وعن ترصد وإصرار قريبًا سيتم التعامل معي على إنني استشهادية وسيتم تدريبي على القتال.

استشاط أحمد غضبا؛ وجن جنونه لما سمعه منها وقال بعصبية:

سأخبر القادة بمنعك، أنت لا تصلحين لهذا الأمر، ما بك حبيبتي

بنظرة سخرية إلى كلام أحمد عبرت عن سخطها مما يقول..

obeikan.com

أحمد أنت تعلم جيدًا ما ألم بي وبأهلي، هل تعتقد حقا إنني لو أحببت وتزوجت؛ وأنجبت دون أن أنظر إلى بلدي، أو أن أساعد أهل بلدي؛ سيرحمني أبنائي بعد ذلك. أحمد نحن نصنع للغد اسم للشرف والعز؛ ليأتي غيرنا يكمل مسيرة النضال والمقاومة، نحن نصارع من أجل إثبات أحقيتنا في أرضنا، الاستسلام والعيش بالعار دون أن نثبت ذلك ما هو إلا هزيمة نكراء للعروبة فينا.

أحمد أعلم كم تحبني

هرب أحمد بعينيه عن بيسان التي تحدثه وخداها محمران كالتفاح.

أحمد انظر إلى أنت تحبني وتريدني زوجة لك، وأنا أثق بك، وأتمناك زوجًا لي، أنت كل شيء بالنسبة لي، أبي وأمي وحبي وأخي وسندي.

إن كنت تريدني زوجة لك فلما لا، أن نكون زوجين بالجنة لا بالدنيا، ضع يدك في يدي؛ لنترك بصمة مجد ونثبت أحقيتنا في ديارنا، نلملم تلك الدماء التي سالت من عروقنا، ونشعل بصيص الأمل المسجون بالعتمة.

ضمها إليه ممسكًا لها، وغمرها بين أضلعه بحنو قائلًا:

opeikan.com

بيسان أنت زوجتي الحبيبة في الدنيا والآخرة، ولن أتنازل عن تحقيق حلمك هذا ما حييت.

لم يمض يومان حتى وصلني خبر بأنني في الطليعة؛ للقيام بالعملية مع بيسان وبعد فترة طويلة من التدريب. أمّنت لنا المنظمة بطاقتين شخصيتين لصحفي يهودي معروف .كانوا قد خطفوه ولا أحد يعلم به .وبيسان بهوية خطيبة يهودية بريطانية تعمل مترجمة لغة.

وفي أول عملية كانت في مطعم للضباط الصهاينة، حيث دخلت وبيسان بأسمائنا المستعارة شارلي والياهوو، وعندما دخلت بيسان الحمام وضعت حقيبتها، وكانت تحمل قنبلة موقوتة مضعفة المفاعل المتفجر، من صنع الفدائيين، وقنبلة مثلها بحقيبتي فتركناهما في الداخل وخرجنا، وركبنا السيارة بسرعة، وماهي إلا دقائق وانفجر المطعم ودوت صفارات الإنذار، وكانت حصيلة هذه العملية عشرين قتيلاً وجرح أربعين صهيوني، مما أرهب المعتدين وزلزل قلوبهم الجبانة.

وشاركنا بعدة عمليات بعدها، وساهمنا بتهريب الأسلحة لباقي الفرق، ثم أُطْلِعت على عمليات أخرى تحتاج لتخطيط ودقة بالتنفيذ،

فرشحوني للقيام بها مع بيسان وتلخصت المهمة بأن ننتحل شخصية الخطيبين الذين سيتزوجان في بيتهما الجديد في تل أبيب، بعد عودتهما من بريطانيا، وتم ترتيب كل شيء للعملية: الأوراق الثبوتية والملكية والصور المطبقة في بريطانيا، وكل شيء محتمل السؤال عنه. وتدربنا لشهر كامل على العملية والأسئلة والإجابات، وزُيِفَت الأوراق في المنظمة على صورتنا ونجحنا في مطابقتها بشكل كبير، مما ساعدنا في الدخول للقطار المحمل بالأسلحة والعتاد الحربي، وبسبب إجادتنا للغة العبرية لم يشك أحد بنا، رغم دقات قلبنا التي كانت تسع المدى وتخفق بسرعة، وهكذا صعدنا للقطار وحصلنا على غرفة مستقلة، وبدأنا بإعداد القنابل وتجميع أدواتها، وتجهيز الموقت لينفجر في اللحظة المناسبة، وإنهاء الأمر بسرعة كبيرة، كنا كنجمتين في قبة السماء ازدادتا إشراقة وبريقًا، وكانت عيوننا معلقة بعيون بعضنا، وكأننا نتغازل ونتبادل الحب، الذي يجمعنا بنظراتنا البريئة، ولا نحتاج للكلام لنبرهن هذا الحب، ها قد حانت اللحظة المناسبة ووصل القطار لتل أبيب لكن قبل وصوله حانت لحظة الوداع، بل على الأغلب لحظة لقاء لروحينا بالسماء، كانت يدها زادي ومرادي، بقيت ممسكًا بها كأن أحد ما سيأخذها مني، ضغطت على يدها بقوة حتى إنني

ظننت إني أضم روحًا جديدة لروحي؛ لأعيش عمرًا أطول من أي إنسان على هذه الأرض، لم أكن خائفًا من الموت ولا هي؛ لأن موتنا تضحية وهدية لفلسطين وأطفالها، كانت السعادة تفتح أبوابها لنا، ترسلنا لأماكن أبعد من الخيال، جاء دوري لكبس الزر الذي سيلقن المحتلين دروسًا لا ينسوها، وما إن ضغطت على الزر حتى تمسكت بي بيسان واحتويتها بكلي، وهمست بروحي بأن هذه التضحية هي المهر الذي انتظرته منذ زمن، وها قد تحققت أمنيتها؛ ونامت على صدري بلسم لجرحي وعطرًا لجسدي الدمي، وانطلقنا عبر زرقة السماء وصفائها، ونحن نرى منظرًا لشهيدين بين ذلك الحطام في الانفجار الكبير، الذي دمر القطار كله؛ وأحدث انفجارات في المعسكر العسكري؛ فكانت خسارة كبيرة لا تعوض أبدًا.

انتهت مهمتنا بنجاح وضحينا لأجل الحرية والكرامة، فمتى سيستيقظ العرب من نومهم العميق، أما آن للعرب أن يستفيقوا من غفوتهم وسكرتهم لملذات الحياة، أن يضعوا حدًا لخضوعهم واستسلامهم.. آن أن نعود لنصنع الحضارة، ونكون القدوة لحياة حقيقية شريفة.

فالطفل العربي لن ينهزم، وسيأتي يوم تصنع الأجيال منارة؛ تشعل الثورة وتلهب الانتفاضة الكبرى ضد عدو فاسد استعلى بالأرض علواً لينهار لأسفل السافلين، انتفاضة لكل العرب ترفع عزتنا وتحرر العروبة من قيودها وتصنع مجدنا المحقق

تمت

obeikan.com